شعر البارودي

حياته وصورة عصره(١)

لمعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا

— ٢ —

عاد البارودي من حرب البلقان وقد أدرك الأربعين ، وبلغ من الرتب العسكرية أعلاها فعيّن مديراً للشرقية فمحافظاً للعاصمة . وبينا هو في هذا المنصب زال اسماعيل عن حكم مصر بعد تدخل الدول الأجنبية في شؤونها ، فكان ذلك نذيراً بتجهم الأفق لبلاده ، وللشاعر العربي الذي شدا بجلالها وتغنى بمجدها

ولكن النهضة التي بثها اسماعيل في مصر تركت في نفس الشعب أثراً لا يسهل التغافل عنه أو القضاء عليه . يستطيع السلطان العثماني أن يصدر فرماناً بعزل اسماعيل ، ويستطيع اسماعيل أن يغادر بلاده الى ايطاليا ، ويستطيع توفيق أن يجلس على عرش أبيه ، ذلك كله يسير لأنه يصدر بأوامر رسمية وينفذ طوعاً لهذه الأوامر . لكن النهضة التي وضعت بذرتها في التربة المصرية من عهد محمد علي ، والتي تعهدها إسماعيل بعنايته ، فشدّ نحيلها ووالى تقويتها ، لا يمكن أن تنزعها الأوامر ، أو يذهب بها تغيير الجالس على العرش . فكان طبيعياً أن تثير هذه الأحداث عواطف الشعب المصري على التدخل الأجنبي ، وأن تلهب في النفوس حرارة القومية ، وأن تدفعها الى التمسك بالشورى والحكم النيابي وسيلة لاقامة العدل ومتابعة الاصلاح

وزاد ارتقاء توفيق عرش مصر رجاء الشعب في بلوغ هذه المطالب ، وزاد من شأنه ذلك أن توفيقاً كان متصلاً بالسيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ، بالدعاة الى الاصلاح والى الشورى ، على أنه لم يلبث حين آل اليه الأمر أن أعاد المراقبة الثنائية ، وأصدر قانون التصفية ، وخاصم الحكم النيابي ، وأعاد السلطة المطلقة . وهو لم يفعل ذلك تمرداً منه على المبادىء التي قال من قبل بها ، وإنما فعله ضعفاً أمام التدخل الأجنبي الذي ازداد في عهده على ما كان في عهد أبيه فكان للاجانب في الواقع زمام الأمر ، وإن أرادت المظاهر الرسمية أن يكون توفيق الممسك بهذا الزمام

(١) كتبت مقدمة للطبعة التي أخرجتها وزارة المعارف وقد وصفت في باب المكتبة في مقتطف نوفمبر ١٩٤٠

وكان سامي البارودي من أنصار الحركة القومية ومن المقربين لذلك الى توفيق في الزمن الأخير من عهد أبيه والفترة الأولى من عهده . ولقربه منه عينه مديراً للاوقاف ، فأصلح فيها ماوسعه الاصلاح على أن إطراد التدخل الأجنبي ومقاومته لفكرة الحكومة النيابية في مصر حال دون ماتحتاج اليه الاصلاح من هدوء وإستقرار وقد أحس المستنيرون من المصريين بأن عليهم واجباً لأنفسهم ولبلادهم ان يتنادموا تيار هذا التدخل وكان المستنيرون يومئذ هم رجال الجيش كما سبق القول . لذلك إنتقلت حركة المطالبة بالشورى والاصلاح من أيدي المدنيين الى أيدي العسكريين

أذن فهذا الانتقال باثارة مشكلة جديدة لم تكن بادية للعيان في عهد إسماعيل ، على رغم ما كان من نشاطها أثناء اختفائها . تلك حركة المصريين في الجيش فقد كان رؤساء الجيش من الجراكسة والترك ، ولم يكن يرقى الى الصفوف الاولى من المصريين أحد . وكان هؤلاء الرؤساء على جانب عظيم من الغطرسة والبطش ، أما ومصر تريد أن يكون أمرها لها ولا تريد للاجنبي سلطاناً ، فمن الحق أن تكون رئاسة الجيش للمصريين ، وألا يكون لهؤلاء الرؤساء الأجانب مالهم من سلطان

لم تكن هذه الفكرة واضحة في النفس المصرية هذا الوضوح في عهد إسماعيل ولا أول حكم توفيق . ولعل التدخل الأجنبي هو وحده صاحب الفضل في تحريكها وإظهارها من بعد خفائه وتوقد . انما كانت الشكوى قبل ظهورها مقتصرة على طلب العدل ورفع الظلم . لذلك كان شعور سامي البارودي وهو جركسي كثيره من الجراكسة ، محبوباً من المصريين محبباً لهم ، بل كان موضع رجاء العسكريين منهم في رفع الحيف النازل بهم ، وكيف لا يحبه المصريون جميعاً وقد نشأ بحب مصر ما نشأ ، وقد وصف من جمال مصر ما لم يسبقه أحد إليه ، وقد صور هذا الحنان في دقة تدل على إخلاصه وصدق محبته . فلما ثار العسكريون المصريون بناظر الحربية عثمان رفقي فاستقال ، أسند توفيق هذه الوزارة إلى البارودي مع ديوان الأوقاف

على أن إسراع توفيق إلى الاتصال بالحوادث وإذعانه للتدخل الاوربي وظهوره بتأييد الحكم المطلق وقف البارودي موقف الحيرة : أيظل على ولائه لصاحب العرش ، أم عن رفاقه الشعب الذي اختصه بحبه . ورأى رياض باشا ، رئيس الوزارة يومئذ ، إيثار البارودي للشعب ، فدس عليه عند توفيق ، فاضطره إلى الاستقالة من الأوقاف والحربية ، ودفعه إلى اعتزال الحياة السياسية والعيش بعيداً عن جو القلق والاضطراب

رأى توفيق حركة الجيش تكبر ، فنحى رياضاً وأسند الوزارة الى شريف باشا ، ولم يقبل البارودي العود إلى الحكم حتى ألح عليه توفيق وأقسم له أن ليس في نفسه منه شيء . واستقال

شريف فاضطر البارودي أن يؤلف الوزارة ، بعد أن أصبح زمام الأمر في مصر إلى الضباط الذين يعتبرون الجراكسة أجانب كغيرهم من الأجانب

وكان البارودي يرجو أن يتلافى هذه الحركة ، وأن يصل بحسن رأيه إلى إقامة العدل والإصلاح في مصر على أساس من مبادىء الثورة السلمية التي انتشرت دعايتها في البلاد ، لكن الأمور سارت على غير هواه ، واندفع الضباط يفكرون في خلع توفيق . وقد نازعته نفسه يومئذ إلى مكان المجد وحركت فيها أسباب الاعتداد بمكان أجداده المماليك الذين حكموا مصر . وقصيدته التي مطلعها :

قلدت جيد المعالي حلية الغزل وقلت في الجد ما أغنى عن الهزل

لا تبرئه من هذا التفكير ، وإن ذكر في الديوان أنها قيلت في عهد إسماعيل . لكنه رأى انكلترا وفرنسا تتدخلان وتبعثان بمذكرتهما المشتركة إلى الحكومة المصرية ، فأحس الخطر ، ورأى أن لا طاقة لمصر بمواجهة هذا الموقف . ولقد حاول أن يتخلص منه بالاعتزال في مزارعه ، وذلك بعد أن نصح لعرابي وصارحهم برأيه ، لكن اندفاعه في حركة الضباط من بدايتها حال بينه وبين التخلص منهم ، فلم يكن له بد من أن يسايرهم ، وأن يربط حظه بحظهم

وهذا الموقف الذي وقفه البارودي هو الذي جعله لا يبرز في الصف الأول من صفوف الثورة العرابية ولا يتولى زعامتها . ولو أنه كان مؤمناً بها إيمان عرابي وأصحابه لكان الطبيعي أن يتقدمهم وأن يدعو بدعايتهم . فهو قد اشترك في حروب أقريطش والروسيا وأبلى فيها بلاء يجعله أقدر ضباط الثورة جميعاً على قيادتها ، وهو قد كان لا ريب أكثرهم ذكاء وأعلاهم ثقافة وأعرفهم بشؤون الحياة الدولية . أما وقد سايرهم إذعاناً لحكم الأحوال فقد رجع إلى الصف الثاني من صفوف الثورة . فلما أخفقت وحوكم زعماؤها حكم عليه معهم ، لأنه شجعهم أول أمرهم ، ولأنه لم ينفصل عنهم حين طلبوا في عصيانهم

ونفي مع زملائه زعماء الثورة إلى سيلان فأقام بها سبعة عشر عاماً وبعض عام . ولقد أقاموا جميعاً في كولومبو سبعة أعوام عاف البارودي خلالها بينهم إذ دبت الشحناء بينهم وانقلب كل يلقي على زملائه تبعة ما حل بهم . ولم يكن ذلك ديدن البارودي . ولا كان من خلاله . لذلك انتقل إلى كندي حيث قضى عشرة أعوام أخر تعلم خلالها الانكليزية ، وعلم بعض أهل كندي الدين الاسلامي واللغة العربية ، واستطاع أن يتسلى ، وإن لم ينس يوماً وطنه وأهله ومجده

لمن يبث شكواه أو يعلن أساه ؟ لا خير في اصطفاء زملائه وكلهم طائر اللب مروع القلب ، ولا خير في التحدث الى أهل البلاد وقل منهم من يفهم حديثه ، وأقل من ذلك من يعرف قصته . لا معين له على الشكوى إذاً الا ربة الشعر . فليشركها معه ، وليتبرم وإياها بهمومه ،

وليستعين بها على الشعر أن يعيد الى العصر الوسيط ، وليتخذ منه وسيلة الى الثائرين عليه بعصر ممن يذكرونه ويتحسرون على مصابه حسرة على الشعر أن يقسو به القدر كل هذه القسوة

وكانت ربة الشعر أم العزاء . مدت اليه قيثارتها ، وألهمته أبلغ آياتها ، يوقعها عليها ليصعد في أنغامها كربة نفسه وهم قلبه . يراجعه الحنين الى الوطن فيشكو النوى ويصور الوطن أروع صورة في أبرع عبارة ، ويثور على الحنين وعلى الوطن فيأمن مصر ويهجو ناسها ، ويحز الأسى في نفسه فيتوجع ، وتراجعه عزيمته ويثور في عروقه دم المماليك فيعود الى الفخر ، وتبلغه الأنباء بوفاة الأهل والأصدقاء ، فيرثي ويبكي ويسلم أمره الى الله ، وينخرط في الأسى وفي الألم ، فيتخذ الزهد ملجأ من أساه ومن ألمه ، ويقصر الزهد فلا يأسو جراح نفسه ، فيثور ويبلغ بالثورة أقصى الحدود ، ويشعر بذهاب الشباب وبالأجل المكتوب في الغربة والنأي عن الاخوان والأهل فيستسلم للقضاء . وربة الشعر في هذه الحالات جميعاً مسلمة اليه نفسها مسلمة له قيادها مادة اليه قيثارتها تلهمه وتقول معه وتبعثه في هذا المنفى على أن يعيد الى الشعر العربي جدة لا تبلى ، ويجعل من آلامه وحسراته وثوراته وحنينه وضعفه وبكائه أداة هذه الجدة ، ومصدر هذا البعث ، بعد أن ظلت اللغة السليمة والأدب الرفيع ملتفين في أكفانهما قرابة ألف عام

ونحن نحاول اليوم أن نتقصى الجديد في شعر البارودي ، ونقصد بالجديد ما أبدع من أغراض لم تكن مطروقة في عهد الأولين من بعث لغتهم وشعرهم ، وما كانت ذاتيته قوية واضحة فيه ، وما يتصل بمظاهر ما جاء به الشعر الاوربي أغراضه ، فنأخذ بأقيادنا ما في ديوانه من الشعر السياسي ، ومن وصف البيئة المصرية والآثار المصرية والحياة المصرية . أما ما خلا ذلك فلم يعد البارودي فيه مقاصد المتقدمين من شعراء العرب ، ولم يعد أوزانهم وقوافيهم وأغراضهم ، لم يفكر في الملاحم الكبرى كما فكر هوميروس في الإلياذة ، ولا فكر في المسرحيات الشعرية كما فكر شكسبير في مسرحياته ، وكما فكر دانتي في الكوميديا الإلهية . وهو في الحق لم يتجه بالشعر العربي غير وجهة الأقدمين الذين عارضهم ونسج على منوالهم ، وإن كان من الحق كذلك أنه لم يفن فيهم ولم يقصر همه على النقل عنهم ، بل بدت شخصيته بارزة في شعره وبدا شعره مرآة بيئته وزمانه . فلو أنه عاصر الأقدمين وعاش بينهم لكان له مثل ما للأخطل والفرزدق ولأبي فراس وبشار من ذاتية تمتاز بها عن غيره وتضعه بها في الصف الأول من هؤلاء الأقران المبرزين

لكنا يجب أن نعدل هذا الرأي اذا أردنا أن نلتمس الحقيقة حين البحث عن الجديد في شعر البارودي ، وأن نقول إن هذا الشعر كان في عصره جديداً كله . كانت محاكاته الأقدمين جديدة ، وكانت معارضته إياهم جديدة ، وكانت رياضته القول على شاكلتهم جديدة . فقد هوى الشعر العربي قبله إلى درك من الانحلال جعله بالنسبة إلينا نسياً منسياً ، وجعلنا نكاد نسقط من حسابنا هذا الألف الذي انقضى من السنين بين الشعر العربي بدء انحلاله ، وبين هذا الشاعر

الذي بعث الشعر العربي إلى الحياة من جديد. ونحن جميعاً مقلدون في أكثر ما نعرض له من شؤون الحياة: مقلدون في الفن والأدب والشعر والعلم لأنها من شؤون الحياة. وإنما نجدد بقدر في حدود ما يصلح فساد الماضي ويضيف إلى الصالح منه ما يزيد حياته ريقاً وما يزيده على الحياة قوة. فاذا كان البارودي قد بعث الشعر العربي واللغة العربية من مرقدهما ورد إليهما حياة ذوت وذبلت قروناً متطاولة، فعمله هذا خلق لا ريب، وهو في عصره جديد كله، وهو جدير لهذا أن يتسنم ذروة المجد وأن يجلس بين الخالدين.

وإذا كان لم يعرف وحدة الغرض في القصيدة الواحدة كما نفهمها اليوم وكما فهمها أهل الغرب، وكان ينتقل من الغزل إلى المدح إلى الفخر إلى الحماسة إلى الحكمة، كما كان يفعل البحتري وأبو تمام والمتنبي وغيرهم من كبار الشعراء، فذلك لأن رسالته لم تكن تجديد الشعر العربي في حياته المتدفقة الفياضة، بل كانت بعث الشعر العربي من مرقده وتمزيق الأكفان التي احتوته مئات السنين. وما وفق له البارودي من هذا البعث لا يزال حتى اليوم أخطر تجديد تم في حياة الشعر العربي منذ نهض البارودي به، لا يقرب إليه إلا ما وفق له شوقي حين وضع مسرحياته الشعرية الخالدة: مجنون ليلى، ومصرع كليوبترا، وما إليهما.

ولذلك لا نعثر في شعر البارودي على فلسفة ظاهرة، ولقد نعثر فيه على زلات غير قليلة في اللغة كما يريدها المتزمتون، وقد يقع له أحياناً أن يسيء الانتقال من غرض إلى غرض أو أن تضم القصيدة الواحدة من قصائده أبياتاً بالغة غاية القوة والجزالة، وأخرى متخاذلة منحطة، أو ضعيفة النسج نابية في استعمال بعض المفردات، وقد تراه متناقضاً في القصيدة الواحدة: زاهداً في أولها ساخطاً أمره لمقاديره، ثائراً في آخرها مدلاً متغنياً فخوراً بنفسه وفعاله وشجاعته وشعره، كما تراه يغرب في اللفظ حين يعارض الأقدمين، ثم لا يمنعه ذلك من أن يسيغ بعض الألفاظ العامية التي تأباها المعجمات ويشوه بها رصفه. لكنك تجد له المعذرة من ذلك كله حين ترجعه إلى أسبابه، وتجد له عذراً أبلغ حين تذكر أن الموهبة التي تحفز صاحبها في ثورات تتعلق بها القلوب والنفوس في إعجاب وتقدير، هي التي تستطيع أن تأخذ الناس إليها به، وما يحذر هؤلاء المجيدون الوقوع فيه لأنهم لا يجيدون غيره، قد يعلو عنه صاحب الموهبة بعبقريته إلى حيث لا يلحقه أحد.

وللبارودي مع ذلك عذره عن كثير من هذه المآخذ التي يتغاضى عنها كثيرون ويرون بعضها ضعفاً وبعضها يشوبه الخطأ. فعذره عن أخطائه النحوية هو عذر الفحول الأولين من كبار الشعراء الذين يستشهد بهم في كل خروج على قواعد اللغة. فهم لم يكونوا يتقيدون بها وقد كانت حديثة الوضع في عهدهم، وكانت أقوالهم حجة لذاتها. وهذا عذر ناهض للبارودي، وهو كما رأيت لم يتعلم النحو والصرف والعروض والقوافي، وهو قد قال الشعر طوعاً لموهبته بعد أن

قرأ الشعراء الأولين وحفظ عنهم كل ما اطمأنّ اليه من أقوالهم ، وأنت لذلك تستطيع أن تقول إنه عاصرهم وعاش معهم . فلم يكن أبناء زمانه من المصريين يعرفون اللغة العربية ، وإنما كانوا يتحدثون بلغة أخرى هي العامية . فحياة البارودي المتصلة باللغة العربية كانت بين الشعراء الجاهليين وشعراء العصرين الأموي والعباسي . ومن ثمّ صارت لغتهم لغته ، وصارت سليقة له كما كانت سليقة لهم ، فكان يقولها ويتصرّف فيها كما كانوا يقولونها ويتصرفون فيها . فإذا هو سما بسليقته في اللغة كما سموا ، ولم يتقيد بما يتقيد به غيره من قواعدها فلا تثريب عليه ، ولا شيء في ذلك يؤاخذ به ، وإن وجب التنبيه اليه

أما ما يقال عن سرقات البارودي فلا ينهض مأخذاً عليه . وهو قد أسلف العذر عن محاكاة الأقدمين ، إذ نصّ في تقديم بعض قصائده على أنها معارضة لقصيدة قديمة معروفة ، أو أنها رياضة للقول على طريقة العرب . هذا إلى أن رسالة البارودي في الشعر كانت رسالة بعث كما قدمنا . وقد اتهم الفحول من الشعراء الأقدمين قبله بالسرقة ، فاعتذر رواتهم وأنصارهم عنهم بأن ما نسب اليهم من ذلك إنما هو توارد الخواطر « كما يقع الحافر على الحافر » على حد تعبيرهم . والبارودي أبلغ عذراً فقد كان محفوظه من الشعر القديم ضخماً ، وكان شعره هو ضخماً كذلك ، وأنت تصادف في ديوانه أبياتاً له مذكورة في أكثر من قصيدة ، فلا عجبَ إذا ظنّ بيتاً محفوظاً لغيره بعض ما قاله فأدمجه في قصيدة من القصائد على أنه له

والحق أن البارودي ما كان بحاجة الى السرقة وعبقريته الشاعرية ما عرفت ، وديوانه تربي فيه القصائد على المئات ، والابيات على الألوف ، وما ينسب اليه أنه نقله عن الاقدمين قليل ، كقوله :

عليّ طلابُ العزّ من مستقرّه ولا ذنبَ لي إن عارضتني المقادرُ

وهو صورة في لفظه ومعناه من قول أبي فراس :

عليّ طِلابُ العزّ من مستقرّه ولا ذنبَ لي إن حاربتني المطالب

هذا التطابق النادر على قلته في شعر البارودي ، قد أوخذ غيره من الفحول بمثله . وإنما يفسره أن روح البارودي متصلة بالأقدمين كل الاتصال . وما قاله في الحكمة وكثير مما قاله في الفخر ليس إلا ترديداً لما قالوا ، لأنه لم تكن له فلسفة خاصة كما قدمنا ، ولأنه كان يبعث معاني الأقدمين كما كان يبعث لغتهم

وإنا لا نسيغ تسمية هذا البعث سرقة . والشعراء والكتاب في كل امة وعصر يتداولون المعاني بينهم ، ثم يمتاز المبرّز منهم بسطوع معانيه وقوتها ، وبوضوح شخصيته في أغراضه وأسلوبه . وللبارودي من هذا التبريز حظ قلّ نظيره . وأنت لا تجد هذا التبريز في قصائد المديح القليلة التي قالها ، لأنه قال هذه القصائد مجاملة ، أو نزولاً على حكم الأحوال ، فلم تكن متصلة بنفسه

ولا صادرة عن وجدانه الأبي المتعالي بنفسه وبجده على كل من سواه . أما في الاباء وفي الفخر ، وفي الحنين ، وفي الرثاء ، وفي وصف الوقائع ووصف الطبيعة ، فقد سما البارودي إلى حيث لا يلحقه إلا الأقلون من أكبر الشعراء فحولة وأكثرهم تبريزاً

ويرجع تبريزه في هذه الأغراض إلى انه كان يعبر بها تعبيراً صادقاً عما تنطوي عليه جوانحه ويتردد في أعماق نفسه ، أو عما شارك بنفسه فيه وكان له منه نصيب رضاه . وهذا سر قوته في وصف الحرب ووقائعها ، وسر دقته في التصوير السياسي لحال بلاده ، وهو السر في عظمة ما قال في المنفى من مختلف ضروب الشعر في مختلف الأغراض ، وفي تفرده بالقول في أغراض لم يعرفها معاصروه ، لأنه لم يكن من طرازهم نسباً ولا ثقافة ولا طموحاً في الحياة . فهو قد رأى من بهجة الدنيا ومن صروف الحدثان ومن عبرة المنفى ما لم يروا ، وهو قد قال الشعر مخلصاً للشعر ، محباً إياه ، لا يبتغي به إلا رضا نفسه ورضا الفن ، مؤمناً بأنه وسيلته إلى الخلود في ضمير الأجيال

وهذا الايمان بالشعر هو الذي جعله يتوفر عليه في المنفى ويجد به بهجة الحياة فيه . فقد أبى من العود إلى الوطن ، إذ أبت عليه نفسه أن يضعف فيسترحم كما فعل زملاؤه . بل انه قال في هذه الفترة لأبياتاً ثائرة لا تقل عنفاً عن أشد الثورات المسلحة . وليس عجيباً أن يكون هذا الشعر الثائر وسيلة للعفو عنه من ذلك قوله :

غشام تسري في دياجير غمة   يضيق بها عن صحبة السيف غمده
إذا المرء لم يدفع يد الجور إن سطت   عليه فلا يأسف إذا ضاع مجده
عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعش   بها بطلاً يحمي الحقيقة شده
وإني امرؤ لا أستكين لصولة   وإن شد ساقي دون مسعاي قده

بل لقد كانت هذه الأبيات وأمثالها أدنى الى اثارة حفيظة الانكليز وحفيظة صاحب العرش في مصر عليه . وما كان زهده وتسلامه أمره الى الله ليمحوا أثرها أو يثبتا سمحاً على أنه ضعف فتاب مما قدم وندم على ما انطوت عليه نفسه من حب المجد وطلابه

وطال به النفي سبعة عشر عاماً كان فيها للشعر كما كان إختيار أجود ما قاله الاقدمون صفوته فيها . فلما تقدمت به السن وطال به النوى وخطف الموت أثناء ذلك ابنته وزوجه وأصحابه بدأ بصره يضعف ، وصحته تضمحل ، ونذر الفناء تدب اليه . هنالك رأى أولو الأمر أن يعود المنفيون من سيلان الى بلادهم وعاد البارودي مهيض الجناح عظاماً ليس فيه إلا أشلاء همة في ثياب » لكنه عاد يحمل معه كتاب الخلود الذي لا يبلى ذلك هو ديوان شعره الذي نقدمه للقراء

للاندار سخرية يالها من سخرية ! فهذا الرجل الذي بعث العربية في أفصح لفظ وأمتن

ديباجة وخلع عليها من الجلال والجمال ما ردّ اليها كل قوتها وكل بهائها . قد عفا عنه خديو مصر بأمر كريم هذا نصه

بناء على الالتماس المرفوع لنا من محمود سامي بالتماس الاحسان عليه بالتمتع بالحقوق الوطنية قد اقتضت مكارمنا منح المومى اليه بالتمتع بالحقوق الوطنية . وعلى ذلك فيجوز له من الآن امتلاك أي ملك من أي نوع كان في الاقطار المصرية بطريق الارث أو الهبة أو البيع أو بأي طريقة كانت الذي كان محروماً منه بمقتضى الأمر العالي الصادر في ١٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ (٣٠ صفر سنة ١٣٠٠) وأصدرنا هذا لعطوفتكم لاجراء مقتضاه ؟

عباس حلمي

وتاريخ هذا الأمر ١٨ محرم سنة ١٣١٨ (١٧ مايو سنة ١٩٠٠)

فلما صدر هذا الأمر وردته السفينة إلى وطنه، كان أول ما قاله إثر عودته قصيدته التي مطلعها :

أبابل مرأى العين أم هذه مصر   فإني أرى فيها عيوناً هي السحر

ونزل البارودي مصر ، فكانت أوبته إليها عيداً نثر البشر في عالم الأدب كله . أصبح منزله ندوة الأدباء والشعراء وذوي المكانة ، يأنسون إليه ويأنس إليهم ، ويستمعون لحديثه ، ويرى في مجالسهم ما يأسو الجراح التي أدمت قلبه سنوات النفي الطوال . فإذا خلا إلى نفسه رتب مختاراته وعني بتنقيح ديوانه يريد إعدادها للطبع . ولقد بذل في ذلك مجهوداً يدل على حبه شعره وإعزازه به . وأصول الديوان تشهد بهذا المجهود . فأنت ترى الأبيات التي حذفها من بعض القصائد ، والأبيات الأخرى التي غيرها كلها أو بعضها شهيدة على صدق إيمانه بأن العبقرية مجهود متصل في سبيل الكمال

وقضى في مصر أربع سنوات ذهب أثناءها ما بقي من بصره، فإذا ربع الوطن ووفاء بنيه يعوضانه عن نور البصر وعن كل ما في الحياة . فلما كانت الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر سنة ١٩٠٤ (السادس من شوال سنة ١٣٢٢) لبى داعي ربه تاركاً لمصر وللعالم العربي هذا التراث الذي لا يبلى ، ولا يعدو عليه الدهر ولا يجني عليه النسيان

توفي ولم يكن قد طبع المختارات ولا الديوان ، فتولت أرملته التي تزوجها بعد نفيه[1] طبع المختارات وطبع الجزءين الأول والثاني من الديوان (إلى آخر قافية اللام)

وحسب البارودي ديوانه آية مجده وتراثاً للأجيال بعده . فهذا الديوان تمثال عبقرية خالدة وهو باق لذلك بقاء الأبد أياً كان الشاعر الذي ينسب إليه . فما بالك وهو صورة صادقة لحياة صاحبه أو تستطيع الفنون مجتمعة أن تقيم تمثالاً يخلد من هذا الشاعر الملهم ما يخلده شعره النابض بالحياة وأنغامها . والذي بعث العربية خلقاً جديداً ؟ أدع الجواب لأرباب الفن وقراء الديوان

(١) ابنة يعقوب سامي أحد زعماء الثورة